الفصل السابع

علاقة مصطفى كامل بالخديو فى ظل سياسة الوفاق

١ ــ موقف مصطفى كامل من سياسة الوفاق

٢ ــ تقييم علاقة كل من مصطفى كامل وعلى يوسف بالخديو

٣ ــ تحليل سياسة مصطفى كامل ودوره فى الحركة الوطنية

٤ ــ وفاة مصطفى كامل

obeikan.com

obeikan.com

١ ــ موقف مصطفى كامل من سياسة الوفاق :

اعتبر مصطفى كامل استقالة اللورد كرومر نصرا كبيرا للحركة الوطنية غير أن تعيين جورست واتباعه لسياسة الوفاق قد أقلقه وجعله يشعر بأن ذلك سيؤدى الى بذر بذور الشقاق بين الوطنيين والخديو، وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك فى رسالة له الى جوليت آدم فقال « كان سقوط كرومر أمرا مرضيا لنا ، واذا وهبنى الله القوة لأستمر فى جهادى خمس سنين فقط لوصلنا لا محالة الى نتائج عظيمة[1] » ثم ذكر أن اختيار جورست قنصلا جنرالا لانجلترا فى مصر من شأنه أن يطيل أمد الجهاد لأن خطته ستقوم على الملاينة والولاء للخديو برد بعض سلطته اليه أملا فى تخدير الحركة الوطنية ، أو بذر بذور الشقاق بين الوطنيين وحاكمهم الشرعى ، كما أوضح « أن السياسة الانجليزية ما زالت تعتقد اننا طوع ارادة الحاكم ، وأنه ليست لنا ارادة ذاتية منبعثة عن شعورنا » وطالب بأن تكون « السياسة الوطنية الصحيحة التى يمكن اتباعها فى مثل هذا الموقف هى بلا ريب ترقب السياسة الانجليزية بكل حذر مع الابتعاد عن التعرض للخديو اذا هو اتفق مع جورست »[2] .

ونتيجة لسياسة الملاينة التى اتبعها جورست صرح الخديو بأنه مستعد للتعاون مع المعتمد البريطانى ، كما ذكر أن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر وأنه لا فائدة من استبدال احتلال باحتلال ، ومعنى ذلك أن الخديو أوضح رغبته فى مشاركة المعتمد البريطانى فى

---

(١) على فهمى كامل : رسائل مصرية فرنسية ص ٢٨٥ .

(٢) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

حكم مصر حكما مطلقا[٣] لذلك فان مصطفى كامل لم يحجم عن انتقاد هذا الحديث فكتب فى اللواء « ان تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال .. وأن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده ، أو بيد المعتمد البريطانى ، أو بيد الاثنين مما ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية نيابية[٤] » ثم أوضح استقلال الحركة الوطنية عن الخديو فقال « ان سمو الخديو بعيد عن الحركة الوطنية ، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو ان قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته اليه ، وان عمل ضدها أضر بنفسه وعرشه ونفرت أمته منه ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الاضرار بهذه النهضة ، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يضرها انسان مهما كان قويا وعظيما[٥] .

ثم ذكر « ان مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعا لعواطفهم وشعورهم اصلاح حالة بلادهم ، وترقية شئونهم ومنحهم الدستور ، وان هذه المطالب ليست صادرة بايعاز من كبير أو أمير[٦] » .

وعلى كل حال فبالرغم من أن الحزب الوطنى قد حرم نتيجة لسياسة الوفاق من نصير قوى هو الخديو فان ذلك لم يفت فى عضد زعامته[٧] ، لأنه كلما أمعن عباس الثانى فى اقراره بالتدخل الأجنبى

---

(٣) الرافعى : مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٥٠ .
(٤) اللواء فى ٢٦ مايو ١٩٠٧ .
(٥) اللواء فى ٢٧ مايو ١٩٠٧ .
(٦) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٥٠ .
(٧) د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٨ .

وتسليمه للانجليز التف الشعب حول الحزب ووقفوا بجانبه مما جعل الحزب يزداد اقتناعا بالاعتماد على شعبية الجماهير بدلا من الاعتماد على الخديو أو فرنسا أو الدولة العثمانية .

ونتيجة للسياسة التى اتبعها جورست فى التربص بالحزب الوطنى أخذ الحزب فى تنويع أسلوب عمله السياسى لكشف أساليب جورست الملتوية وتوعية الجماهير[٨] ، فكتب سيد على أحمد أحد كتاب الحزب مقالا فى اللواء أوضح فيه محاولات جورست شطر الأمة الى قسمين يفصل الراعى عن الرعية ليتخذ من أحدها ظهيرا على الآخر[٩] .

وظل الحزب الوطنى ينبه الأذهان الى خطورة سياسة جورست كما ظل ينادى بوحدة الصف لمواجهة مخاطر السياسة الجديدة .

تقييم علاقة كل من مصطفى كامل والشيخ على يوسف بالخديو :

حرص مصطفى كامل على ضرورة اتباع سياسة ودية تجاه الخديوية وتقوية الروابط بينه وبين الخديو للاستفادة منه فى شد أزر الحركة الوطنية ، وبالرغم من تسليم الخديو فى حادثة فاشودة وموافقته على اتفاقية السودان فان الوطنيين قد التمسوا له العذر بعض الشىء ، وليس معنى ذلك أن الحركة الوطنية كانت ربيبة القصر بل أن مصطفى كامل كان يرى ضرورة المحافظة على العلاقات الودية بين الطرفين حتى لا ينفذ الاستعمار من خلال الفرقة لتأكيد نفوذه بشرط ألا يؤثر ذلك على المطلب الأساسى وهو الجلاء ، ولكن لما توالى خضوع الخديو للاحتلال جعل علاقة مصطفى كامل به تفتر كما جعلته يفكر فى الاستقلال بالحركة الوطنية عن الخديو وعدم الاعتماد عليه لأن فى ذلك تعطيما

---

(٨) يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٩) اللواء : العدد ٢٧٦٩ فى ١٩٠٨/١٠/٣ تحت عنوان « السياسة الخفية والمعتمد المستتر » .

لشأن الحركة الوطنية وبوجه خاص فى نظر دول أوربا التى كانت تعتقد أن الحركة الوطنية فى مصر ليست الا صنيعة للخديو ومن غير وحى الشعب بل من وحى ولى الأمر[١٠] فبادر مصطفى كامل بكتابة خطاب الى الخديو بعد مقابلته فى ديفون يعلن عن قطع صلته به . ومن هنا تتضح طبيعة العلاقة المستقلة بين الخديو ومصطفى كامل لذلك فالقول بأن مصطفى كامل كان عميلا للخديو أمر يخالف الواقع لدرجة أن الخديو عباس الثانى اعترف بذلك فى مذكراته فقال « لقد قيل فى أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة أنى كنت خصمه ، وقيل أيضا أنه صنيعتى ، وليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل . ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه ، لقد كان رجلا من الصفوة عاش بايمانه ومات بايمانه ، أما أنا عباس حلمى فانى ما كنت أبدا خصمه ، وما كنت أبدا وحيه ، ولم يكن صنيعتى بل كان رائدا جنديا يحارب تحت راية مثله الأعلى[١١] .

ولقد قامت علاقة مصطفى كامل بالخديو تبعا لمواقف الخديو تجاه الاحتلال فقد اتخذ مصطفى كامل موقف المعارضة منه حين تنكر للحركة الوطنية ، لذلك يمكن القول بأن الخديوية عند مصطفى كامل كانت أداة من أدوات الكفاح وليست غاية وان مصطفى كامل اتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الأمة المصرية على مقاومة الاحتلال[١٢] .

ومع أن مصطفى كامل حاول ألا تصل علاقته مع الخديو الى درجة النزاع الواضح حتى لا يعطى للانجليز الفرصة لتعميق ذلك الخلاف فانه لم يكف عن توجيه النقد اليه كلما تقرب الى الاحتلال فلم يسكت على وقوف الخديو تحت العلم البريطانى أثناء استعراض جيش الاحتلال

---

(١٠) عبد اللطيف حمزه : ادب المقالة الصحفية جـ ٥ ص ٦٤ — ٦٥ .

(١١) جريدة المصرى العدد ٤٨٣٨ فى ١٧ مايو ١٩٥١ تحت عنوان مذكرات الخديو عباس حلمى الثانى .

(١٢) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٩٣ .

فى نوفمبر ١٩٠٤ بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا بل انتقد ذلك بشدة موضحا أن ما فعله الخديو يمثل اهانة للكرامة القومية[١٣] كما انتقد مصطفى كامل انصراف الخديو الى مصالحه الخاصة[١٤] ووقوفه بجانب الشيخ على يوسف فى قضية الزوجية ، يضاف الى ذلك انتقاد مصطفى كامل لحديث الخديو الى المستر دايسى حينما نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ومدح أعمال كرومر[١٥] ومن ذلك يتضح أن مصطفى كامل كان يتخذ من الخديو أداة لتحقيق أغراض الحزب الوطنى وقد أكد ذلك المستر بلنت بقوله ان مصطفى كامل ندد بالخديو فى حديث معه يوم ١٩ ديسمبر ١٩٠٦ فقال ان جميع أفراد الأسرة الخديوية لا يساوون شيئا ويجب ابعادهم عن العرش[١٦] ، كما ذكر رشيد رضا أن الحزب الوطنى كان يتخذ من الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الأمة على مقاومة الاحتلال فان ظفرت البلاد بجلاء الانجليز فان الحزب الوطنى يؤسس لها حكومة لا يكون للخديو ولا لأمثاله أدنى حظ منها[١٧] .

وهكذا كان شعار مصطفى كامل الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية حتى لبسها ولبسته فصار بينهما تلازم مستمر فى كافة المواقف .

أما الشيخ على يوسف فقد كان يختلف عن مصطفى كامل فى تعامله مع الخديو اذ كان مرتبطا بسياسة الخديو متعلقا بأذياله ، فهو معه بخط على الاحتلال أم تهادن معه فعندما هادن الخديو الانجليز بعد فاشودة توقف الشيخ على يوسف عن مقاومة الانجليز كما أنه ضاق ذرعا بمقالات مصطفى كامل التى كانت تنشرها له المؤيد ، مما دفع

---

(١٣) الرافعى : المرجع السابق ص ١٨٣ .
(١٤) اللواء فى ١٠ ابريل ١٩٠٤ .
(١٥) اللواء فى ٢٦ مايو ١٩٠٧ .
(16) Blunt : My Diaries, Vol 11,p. 169 .
(١٧) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ج ١ ص ٥٩٣ — ٥٩٤ .

الأخير الى انشاء اللواء فى يناير ١٩٠٠ حتى يعبر عن آرائه ويوصلها الى الجماهير بدون قيود[١٨] وليتخلص أيضا من معاكسات الشيخ على له[١٩] . وقد أحاط الخديو عباس الثانى المؤيد وصاحبه برعايته وشملهما بحمايته وأصبح الشيخ على يوسف يسير فى ركاب الخديو حيث سار[٢٠] ويقف معه سواء أكان ظالما أو مظلوما فبعد الاتفاق الودى ١٩٠٤ تغيرت سياسة الشيخ على يوسف تجاه الانجليز ، وعدل عن المطالبة بالجلاء صراحة وسافر الى لندن وألقى خطبة طالب فيها المصريين بأن تكون لندن كعبتهم من الآن ، وبعد انفصال الحزب الوطنى عن الخديو وقف الشيخ على يوسف ضد مصطفى كامل علانية مما جعل الطلبة يتظاهرون ضده ويرشقون داره بالحجارة[٢١] .

وأخذت العلاقات تتوطد بين الخديو والشيخ على يوسف لدرجة أن الخديو كان يستشيره فى تشكيل الوزارات[٢٢] واختيار الوزراء كما جعله من جلسائه وأحد نصحائه وحظى بعطفه الذى لا ينقطع[٢٣] يضاف الى ذلك أن الخديو جعل من الشيخ على واسطته فى قضاء حاجاته الخاصة ، مثل بيع الرتب وخلافه وقد أوضح محمد فريد ذلك فى مذكراته فقال « كان الشيخ أكبر سمسار فى بيع الرتب والنياشين وفى مسائل الأوقاف وقد أثارت مواقف الشيخ على الموالية للخديو عداء مصطفى كامل له فاندفع فى حملات عنيفة عليه على صفحات اللواء ، كما انتهز فرصة زواجه من ابنة الشيخ السادات رغم ارادة والدها وشن عليه حملة قاسية فكتب مقالا فى اللواء تحت عنوان « قضية

---

(١٨) على فهمى كامل : مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا ج ١ ص ٤٢٢—٤٢٣ .
(١٩) مذكرات محمد فريد . ملف ٢ ص ٥٨ .
(٢٠) تشارلز آدمز : الاسلام والتجديد فى مصر ص ٢١٧ .
(٢١) مذكرات محمد فريد ملف رقم ٢ ص ٥٨ .
(٢٢) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٩ ص ٣٨٢ .
(٢٣) أحمد شفيق : مذكرات فى نصف قرن الجزء الثانى — القسم الثانى ص ٧ ، ٢٧ ، ١٠٤ .

الزوجية » أوضح فيه أثر هذه القضية فى غضب الرأى العام وأثاره الخواطر كما كتب مقالا آخر بعنوان « من فضيحة الى أخرى » نـدد فيه بالشيخ على يوسف واتهمه بالخروج عن مبادئه ، وقد اشتمل هذا المقال على ٢٦ سؤالا وجهها مصطفى كامل الى الشيخ ومنها : هل الرجل الذى يقيم عشرة أعوام على مبدأ سياسى مرماه الجلاء والاستقلال ثم يتحول عنه الى اطراء الاحتلال ومسالمته يعد منافقا أم لا[٣٤] .

كما حاول مصطفى كامل أن يقنع الخديو بمضار خطته فى تأييد الشيخ على يوسف أثناء مقابلة ديفون ، ولكن الخديو لم يقتنع برأيه مما دفع مصطفى كامل الى قطع صلته به .

وعلى كل حال فقد روج مصطفى كامل للقضية المصرية ترويجا واسعا حتى انضم اليه الكثيرون ، كما روج الشيخ على يوسف أيضا للقضية المصرية ولكن طريقته فى الترويج كانت تختلف عن طريقة مصطفى كامل وكان تقبل الناس له أقل من تقبلهم لمصطفى كامل فالشيخ على يوسف كان أقرب الى الهدوء والرزانة بينما مصطفى كامل كان أقرب الى الثورية ، ولعل القضية المصرية كانت فى حاجة الى المجهودين معا وقد عبر الخديو عباس عن ذلك بقوله « لا يسعنى الا أن أذكر كل أولئك الذين وهبوا أنفسهم للنهضة الوطنية وأن أذكر من الصحفيين السيد على يوسف منشىء جريدة المؤيد المعروفة فى زمانها بتيمس الشرق ولنذكر أيضا جرائد الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل باشا «اللواء» وزميله الانجليزى والفرنسى[٣٥] .

كما أوضح الخديو أنه حاول التقريب بين وجهتى نظر كل من الشيخ على ومصطفى كامل ولكنه لم يستطع مطلقا أن يحقق هذا الأمل اذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء المبالغ فيه ، ومع ذلك فقد

---

(٣٤) اللواء : العدد ١٦٠٦ فى ٣١ ديسمبر ١٩٠٤ .
(٣٥) جريدة المصرى . فى ٢٧ مايو ١٩٥١ . مذكرات الخديو عباس الثانى .

كان بوسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا ، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفى لأن يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير[٢٦] .

وخلاصة القول أن الشيخ على يوسف سار مع الخديو سواء سخط على الاحتلال أم تهادن معه بينما وقف مصطفى كامل مع الخديو عندما ساند الحركة الوطنية واختلف معه عندما هادن الاحتلال لأن الخديوية كانت أداة من أدوات الكفاح لا غاية .

٣ — تحليل سياسة مصطفى كامل ودوره فى قيادة الحركة الوطنية :

لقد أعاد مصطفى كامل للمصريين ثقتهم بأنفسهم بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير ، وذكرهم بماضيهم وجلال تاريخهم فى أسلوب سهل مؤثر على سامعيه ، فجرت خطبه على ألسنة الناس وكأنها أناشيد وأغان ، وكان مصطفى يعتقد أن الدين والوطنية متكاملان ولا مجال للصدام بينهما[٢٧] .

ولسنا من القائلين بعصمة الزعيم من الخطأ لأنه بشر ، والبشر معرض للخطأ كما أنه معرض للصواب ، كما أننا نضع فى اعتبارنا أن ما كان يمكن اعتباره عملا عظيما بالأمس قد لا يعد اليوم كذلك .

وفيما يلى نعرض للاتهامات التى وجهها البعض الى مصطفى كامل ونحاول تحليلها والرد عليها :

١ — قال البعض أن مصطفى كامل حاول ربط مصر بعجلة الدولة العثمانية رغم ضعفها ورغم الأضرار التى تلحق بمصر من جراء ذلك . ولتحليل ذلك يمكن أن يطرأ على الذهن عدة تساؤلات وهى :

---

(٢٦) جريدة المصرى : العدد السابق .

(٢٧) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : تاريخ مصر السياسى من الاحتلال الى المعاهدة القاهرة — دار المعارف ١٩٦٧ ص ٣٠ .

(أ) ما هو هدف مصطفى كامل من ربط مصر بالدولة العثمانية ؟

(ب) ما هى الفوائد والأضرار التى عادت على مصر من هـذه السـياسة ؟

(جـ) هل كان مصطفى كامل على استعداد لتعديل هذه السـياسة اذا أضرت بمصلحة مصر ؟

وعن التساؤل الأول فان مصطفى كامل تلميذ عبد الله النديم — الذى نادى بأن تكون مصر للمصريين ، وفضل الوطنية المصرية عما عداها — قد دعا الى دعم تبعيـة مصر لتركيـا وضرورة التمسـك بالرابطـة العثمانية[٢٨] حتى يطمئن الى أن تركيا لن تنضـم الى انجلتـرا فى سياستها الاستعمارية ضـد أمانى المصريين[٢٩] وحتى يثبت بطـلان الاحتلال الانجليزى وعدم شرعيته كما أنه رأى فى التعاون مع الدولة العثمانية ورقة سياسية ذات فعالية ضد محاولات انجلترا اعلان الحماية على مصر فليس من الحكمة أن ينادى مصطفى كامل بجلاء الاحتـلال البريطانى وبالغاء السيادة العثمانية معا[٣٠] يضاف الى ذلك أن مصطفى كامل كان يأمل فى وجود تكتل اسلامى لمواجهة الخطر الأوربى ، ولا مانع عنده من أن يكون هذا التكتل تحت زعامة تركيا بمعنى أن الولاء لتركيا كان موقفا سياسيا لمسايرة الظروف الدولية التى تحيط بمركز مصر آنذاك فدعوته الى التمسك بالروابط مع تركيا لم تكن على حساب القضـية انما كانت لخدمتها .

وقد تساءل مصطفى كامل ردا على مزاعم معارضيه ، ما الذى كان يحدث لمصر لو تنازلت تركيا عن حقوقها فى وادى النيل بمعاهدة مثل

---

(٢٨) مصطفى كامل : « المسئلة الشرقية » ص ٢٥٩ .

(٢٩) محمد علوبة : ذكريات سياسية واجتماعية ص ٢٦ .

(٣٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٦٠ .

ما حدث فى الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا ١٩٠٤ ألم يكن ذلك ربحا حقيقيا لانجلترا حيث يتسنى لهـا اعلان حمايتها على مصر .

ان فكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية فى ذلك الوقت كان لهـا ما يبررها لأن التخلص من هذه السيادة كان أمرا هينا بعد التخلص من الاحتـلال[٣١] .

وقد عبر مصطفى كامل عن ذلك بقوله « وليعلم أعداء مصر أننـا نطلب لهـا الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض ، واننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فاننا نعمل كغيرنا نتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون[٣٢] » .

ومما سبق يتضح أن رؤية مصطفى كامل للسيادة العثمانية كانت قائمة من أجل مصلحة مصر ، وان حركة الحزب الوطنى كانت نابعة من مصر وغاية أمانيها الاستقلال[٣٣] .

وعن التساؤل الثانى وهو ما هى الفوائد والأضرار التى عادت على مصر من محاولات مصطفى كامل ربطهـا بتركيا ؟ فيتضـح أن هـذه المحاولات أرجأت محاولات الانجليز ضم مصر اليهم ، كما فوتت عليهم محاولات تقسيم مصر وأبرزت دولية المسألة المصرية .

أما عن أضرار هذه العلاقة فانها أبعدت الفـلاحين المصريين عن حركة مصطفى كامل الوطنية بعض الوقت لأن تقربه من الدولة العثمانية جعلهم يخشون عودة الحكم التركى بجبروته وقسوته ويذكرهم بالكرباج وقسوة جمع الضرائب .

---

(٣١) الرافعى : المرجع السابق ص ٣٦٢ .

(٣٢) نفسه ص ٣٦٨ .

(٣٣) اللواء فى ٢ فبراير ١٩٠٧ تحت عنوان « أمانى مصر وآمالها » .

أما عن التساؤل الثالث وهو هل كان مصطفى كامل على استعداد لتعديل هذه السياسة اذا أضرت بمصلحة مصر فاننا نعتقد أنه لو امتد بمصطفى كامل الأجل لعدل خطته تجاه تركيا كما عدل من خطته تجاه فرنسا والخديو من قبل لأنه كان لا يتوخى غير مصلحة مصر ولا يبحث الا عن سلامتها .

(ب) علاقة مصطفى كامل بفرنسا

كان التجاء مصطفى كامل الى الدول الأوربية وخصوصا فرنسا — ليطلب نجدتها ضد الاحتلال الانجليزى لمصر — أمر تقتضيه الظروف ومع ذلك فقد اتهم البعض مصطفى كامل بأنه كان عميلا لفرنسا ولكن الرد على ذلك هو أن العميل دائما تابع والتابع يصعب عليه أن ينتقد متبوعه ، أما مصطفى كامل فانه لم ينقد سياسة ولم يتهجم على منهج وأسلوب عمل كما فعل مع فرنسا فقد انتقدها علنا[٣٤] .

حقيقة أن مصطفى كامل كان معجبا بفرنسا فهى البلد الذى تعلم فيه القانون ، وظفر فيه بكثير من الأصدقاء ، وتعرف فيه على كثير من رجالات الأدب والفكر والصحافة ، واتخذ فيه لنفسه أما روحية هى جولييت آدم ، ورأى فيه كيف تكون الحرية والاخاء والمساواة[٣٥] ومع ذلك فقد انتقدها وعاب سياستها علنا وأبدى سخطه عليها وبوجه خاص بعد فاشودة والاتفاق الودى ، وقد أوضح ذلك فى خطاب له الى جولييت آدم فقال « انى أود أن لا تخفى عنك خافية من أفكارى وحقيقة احساسى نحو فرنسا فأنا أهيج ضد السياسة المشئومة التى تقتفى أثرها[٣٦] » .

---

(٣٤) فتحى رضوان : مصطفى كامل . القاهرة — دار المعارف ص ٢٤٧ .

(٣٥) د. عبد اللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية فى مصر . ج ٥ مصطفى كامل صاحب اللواء . القاهرة — دار الفكر العربى . الطبعة الأولى ص ٦١ .

(٣٦) على فهمى كامل : المرجع السابق ص ٢٤٣ .

أما وقد استعان مصطفى كامل بفرنسا فكان أمر تقتضيه الظروف ففرنسا كانت دائما المنافس الأول لانجلترا ، وهذا أتاح لمصطفى كامل ضابر لم يكن يجدها فى مكان آخر ، فقد وضعت فرنسا صحفها ومجلاتها وجمعياتها تحت امرة مصطفى كامل(٣٧) .

ومع ذلك فان مصطفى كامل لم يعتمد على فرنسا وحدها بل دافع عن القضية المصرية وأوصل صوت مصر الى كثير من البلاد الأوربية وحتى انجلترا نفسها سافر اليها مصطفى كامل لتوضيح قضية بلاده .

لقد حاول مصطفى كامل أن يضرب بريطانيا بفرنسا ويخرج بمعركة بلاده منتصرا ، ولكن تراجع فرنسا المستمر أمام انجلترا أضاع أمله ، لذلك لم يجد مصطفى كامل بدا من الاعتماد على الرأى العام المصرى فى مواجهة الاحتلال .

(ج) علاقة مصطفى كامل بالخديو

سار مصطفى كامل على هدى تعليمات أستاذه النديم بألا يعادى الخديو حتى لا تنقسم الأمة كما حدث بين العرابيين والخديو توفيق لذلك اتخذ مصطفى كامل من الخديوية سندا فى كفاحه ، ولا شك أن الحركة الوطنية قد استفادت كثيرا بانضمام الخديو اليها ، ومع ذلك فان هذه الحركة لم تكن ربيبة القصر كما أن الوجود الاحتلالى لم يتسبب فى ظهور الحركة الوطنية وان كان قد ساعد على نموها(١) فالمتتبع لجذور الحركة الوطنية أيام مصطفى كامل يجد أنها لم تتبع من فراغ، فقد سبقتها ثورة عرابى التى انتهت بالاخفاق ، فجاء مصطفى كامل لكى يبدد ظلام الهزيمة وينير طريق الكفاح الوطنى .

---

(٣٧) فتحى رضوان : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

١ — د. يونان لبيب : المرجع السابق ص ١٩٠ .

ويجب أن نذكر أن الحركة الوطنية فى أول أمرها كانت أضعف من أن تقف بمفردها أمام الانجليز ، لذلك كان ارتباط مصطفى كامل بالخديو أمر يقتضيه الواقع وتحتمه الظروف ، ومع ذلك قد ساير مصطفى كامل الخديو طالما وقف الأخير بجانب الحركة الوطنية ثم اختلف معه عندما هادن الخديو الانجليز وسايرهم . ومعنى هذا أن مصطفى كامل لم يكن عميلا للخديو ، وقد أوضح ذلك الخديو عباس نفسه فقال ليس هناك ما هو أشد بعدا عن الحقيقة من هذا الذى قيل ، ان مصطفى كامل لا ينتمى الا الى نفسه(٣٨) .

والواقع أن مصطفى كامل اتبع سياسة متراصية الأطراف تعتمد على أساليب متعددة من أجل جلاء الانجليز عن مصر ولم يترك وسيلة للدعاية للقضية المصرية الا ولجأ اليها . فقد كانت رسالته رسالة الاستقلال ، والجلاء فى نظره هو الرمز الصحيح للاستقلال لذلك وقف ضد الاحتلال وطرب عندما « رأى الروح الوطنية فى مصر قد جرت مع الدم فى العروق ، وأن حب الاستقلال صار يسكن كل فؤاد لأنه لا حياة للأمة المصرية بغير ذلك و لاتقدم لها بغير الوطنية العالية(٣٩) » .

لقد كان مصطفى كامل فى رأى البعض خياليا متطرفا فقد وصف الشيخ محمد عبده مقالاته بأنها « مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف(٤٠) » ، واعتبر البعض طلبه للاستقلال سابق لأوانه (٤١) .

---

(٣٨) المصرى : فى ١٨ مايو ١٩٥١ — مذكرات الخديو عباس الثانى .

(٣٩) ضمن خطاب ارسله مصطفى كامل من باريس بتاريخ اول سبتمبر ١٩٠٧ الى احمد حلمى المحرر باللواء . والخطاب موجود بمتحف مصطفى كامل بميدان صلاح الدين بالقلعة .

(٤٠) محمد رشيد رضا : المرجع السابق ص ٥٩٣ .

(٤١) الهلال : الجزء الثالث من السنة ١٦ فى اول مارس ١٩٠٨ ص ٣٣٣ .

والخلاصة أنه اذا كان لمصطفى كامل أخطاء ، فمن الممكن أن يلتمس له العذر فى أنه قد ناضل من أجل مصر فى شبابه ، كما أنه لم يمتد به العمر حتى تصقله تجارب الشيخوخة ، ورغم ذلك فيصعب على أحد أن ينكر أن مصطفى كامل خدم مصر بعمره القصير أكثر مما خدمها أصحاب التجارب الكثيرة فى أعمارهم الطويلة .

وفاة مصطفى كامل

ان المهمة الوطنية الكبيرة التى حملها مصطفى كامل على كاهله وظل يكافح من أجلها بكل جهد قد أنهكت قواه ، ومع ذلك لم يستطع أحد حتى من المقربين اليه أن يجبره على التزام الراحة[٤٢] .

وقد شعر مصطفى كامل بالمرض لأول مرة قبل وفاته بنحو أحد عشر عاما من فرط الاجهاد فى العمل لخدمة وطنه حينما عاد من أوربا فى ١٠ أكتوبر ١٨٩٧ فاستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة ولكن لم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أنهك قواه عدة أسابيع فأشار عليه الأطباء أن يقضى الشتاء فى حلوان فعمل بمشورتهم[٤٣] ثم عاد الى جهاده المليء بالمتاعب ، وكان حبه لمصر يفوق اهتمامه بصحته ، وقد عاوده المرض من حين لآخر حتى اعتلت صحته وقد كتب الى جوليت آدم موضحا ذلك بقوله « ان العمل قد أضنانى الى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى أعيش فيه ، وكأن الطبيعة خالفت سنتها اذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى[٤٤] .

ولقد آثر مصطفى كامل الاهتمام بالدفاع عن قضية مصر على الاهتمام بصحته والسهر عليها مما جعل مهام الواجب الوطنى والمسئوليات التى أخذها على عاتقه تنوء بهيكله الضعيف ، وتضطره

---

(٤٢) أحمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٥ .
(٤٣) طاهر الطناحى الساعات الأخيرة . القاهرة — دار الهلال .
(٤٤) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

خلال أسفاره فى الخارج الى إهمال العلاج الذى يتطلبه تكوينه النحيف ففى أثناء جادثة دنشواى كان مصطفى كامل يستجم من وهن فى قوته ، ولكنه ما أن سمع بالحادث حتى ترك الراحة واستأنف جهاده[٤٥] فهب من فراش المرض يدافع عن المظلومين ويحارب بقلمه ولسانه الظالمين رغم الحاح طبيبه عليه بالراحة فكتب فى « الفيجارو » مقالا تحت عنوان « الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدين » شرح فيه الحادث أمام الضمير الانسانى[٤٦] ، فكان لذلك أكبر الأثر فى توضيح ما نئن منه مصر تحت نير الاحتلال ثم سافر مصطفى كامل الى لندن فوضح للرأى العام الانجليزى حقيقة أعمال كرومر فى مصر وعندما عاد الى مصر انكب على العمل لتحقيق المهام الوطنية التى نالت الكثير من صحته[٤٧] ويذكر محمد فريد « أنه عندما عاد مصطفى كامل من أوربا وذهب لمقابلته بالاسكندرية على الباخرة وكان الدكتور رمضان بانتظاره باللوكاندة ، فلما رآه مصفرا أخضر اللون قال لى همسا ان حالته الصحية غير مرضية ولابد أن يكون مصابا بالسل[٤٨] وتذكر جوليت آدم أنه بعد عودة مصطفى كامل من انجلترا أصيب بمرض غريب صرح على أثره طبيبه الخاص بأن حياته فى خطر ، وأنه من المحتمل أن يكون قد دس له السم فى انجلترا[٤٩] وقد ألح المرض على مصطفى كامل قبيل وفاته بثلاثة أشهر[٥٠] وبوجه خاص بعد وفاة والدته التى حزن عليها كثيرا ، ويتضح ذلك فى رسالة له الى مدام جوليت آدم فى ١٥ مايو ١٩٠٧ قال فيهـا « ان والدتى العزيزة ، المالكة فؤادى قد فارقت الدنيا يوم الأحد الفائت . ان حزنى شديد ، وحياتى كادت تنقضى[٥١] » ومع ذلك فقد مضى مصطفى كامل

---

(٤٥) احمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٥ .
(٤٦) طاهر الطناحى : المرجع السابق .
(٤٧) احمد رشاد : المرجع السابق ص ٢٨٦ .
(٤٨) مذكرات محمد فريد : الجزء الأول القسم الأول ص ٣ .
(٤٩) جوليت آدم : المرجع السابق ص ٢٦٠ .
(٥٠) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧١ .
(٥١) على فهمى كامل : المرجع السابق ص ٢٨٧ .

فى عطه فظل يغالب المرض ويجاهد ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧ ترك سرير مرضه ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية وهناك ألقى خطبته ، وكانت آخر خطبة له فقد اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد الى غرفته مريضا ، وفى صباح اليوم التالى بلغه نبأ وفاة صديقه لطيف باشا سليم — أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية[٥٢] وأحد رجال الادارة والقضاء المعدودين فى مصر آنذاك[٥٣] فجزع مصطفى لوفاته جزعا شديدا وتدهورت صحته بسبب ذلك[٥٤] .

وكان مصطفى كامل وهو على فراش المرض لا يدع العمل والتفكير فى خدمة مصر فقد أرسل وهو طريح الفراش وقبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا ضد تصريحات السير ادوارد جراى التى أدلى بها فى مجلس العموم البريطانى واتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر لا تقل عن الأمم الأوربية فى استعدادها للحكم الذاتى وانها ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تحصل عليهما[٥٥] .

أخذ المرض يشتد على مصطفى كامل الى أن أسلم الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير ١٩٠٨ وقد نشرت اللواء هذا النبأ على صفحاتها فقالت « توفى الى رحمة الله مديرنا العزيز مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى فى تمام الساعة الرابعة من بعد ظهر أمس . لقد أصيب مديرنا باغماء فى الصباح أقلق بالنا وحوالى الظهر

---

(٥٢) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٥٣) الأخبار : العدد ٢٥٦ فى ٢٩ ديسمبر ١٩٠٧ تحت عنوان « لطيف باشا سليم » .

(٥٤) كتب مصطفى كامل الى جوليت آدم يقول « انا صحتى فهى بين اليأس والرجاء .. والسبب فى انتكاسى بعد خطبتى راجع الى مفاجأة المتون صديقا لى حميما كان من أشد وأكبر نصرائى المرحوم لطيف باشا سليم » . انظر رسائل مصرية فرنسية ص ٣٠١ .

(٥٥) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٢ .

لاح لنـــا أنه تحسن قليلاً ، فاستأنفنا أعمـــالنا ، وقـــد كنا قطعنـــاها فانهيناها ، ولكن سرعان ما انتكست وخارت قواه تدريجيا ولفظ أنفاسه الأخيرة عندما كانت الساعة تدق الرابعة[٥٦] » .

وقد انتشر هذا النبأ فى أنحاء مصر وبلغ الحزن منتهاه ولم يكن الشعور مقصورا على طبقة دون أخرى بل تناول كافة طبقات الأمة[٥٧] حتى أن خصوم مصطفى كامل السياسيين قد جزعوا لوفاته[٥٨] ، كما أن الحزن لم يكن مقصورا على مصر وحدها بل تخطاها وانتشر فى سائر العالم الاسلامى[٥٩] .

وقد شيعت جنازة مصطفى كامل بعد ظهر يوم ١١ فبراير ، وكان يوما مشهودا لبست فيه الأمة المصرية ملابس الحداد واجتمعت عشرات الألوف للسير فى الجنازة التى وصفها قاسم أمين بأنه رأى فيها قلب مصر يخفق للمرة الثانية بعد دنشواى .

وقد اشتركت معظم المدارس فى تشييع جنازة مصطفى كامل ، وكانت كل مدرسة تسير حاملة علمها ، وقد حمل طلبة الحقوق النعش الملفوف بعلم مصر على أكتافهم ورغم محاولات الحكومة منع الطلبـــة من الاشتراك فى الجنازة فان الطلبة تركوا دروسهم وخالفوا أوامـــر

---

(٥٦) اللواء فى ١١ فبراير ١٩٠٨ .

(٥٧) الرافعى : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٥٨) رغم ما كان بين مصطفى كامل ولطفى السيد من خصومة سياسية عقد وقف الاخير كلامه مفجوع فى اعز الناس واقربهم اليه ، وكان لطفى السيد ممن دعوا الى اقامة تمثال لمصطفى كامل .

محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ص ٣٣ .

(٥٩) الهلال : الجزء السادس من السنة السادســـة عشرة فى اول مارس ١٩٠٨ ص ٣٢٢ تحت عنوان « مصطفى كامل والنهضة السياسية » .

نظار المدارس[٦٠] وذلك نظرا لما كان يتمتع به مصطفى كامل من نفوذ كبير بين الطلبة[٦١] .

ولم يستطع المعتمد البريطانى جورست أن يخفى الحقيقة فقد ذكر فى تقريره أن جمهورا كبيرا قد شيع جنازة مصطفى كامل كان اكثرهم من الأفندية وتلاميذ كل مدارس القاهرة الثانوية والعالية تقريبا[٦٢] كما اشترك فى تشييع الجنازة كثير من كبار رجالات مصر وأعيانها وقد نشرت الصحف المصرية بكافة اتجاهاتها نبأ الوفاة وأفردت الأعمدة الطوال من صفحاتها لهذا النبأ . ويذكر على فهمى كامل أنه تسلم ١٣٣٣٤ برقية ، ٨٤٣٠ خطاب عزاء وان الطلاب ذكورا واناثا خطوا شارة الحداد عليه أربعين يوما بالرغم من معارضة مستشار المعارف دنلوب[٦٣] .

ولقد ظن الانجليز أن المعارضة قد ماتت بوفاة مصطفى كامل وفات عليهم أنه قد بذر حب الوطنية وسلم الراية مرفوعة لمن أتى بعده كما أرسى دعائم حزب سياسى استطاع ادارة دفة الكفاح الوطنى ضدهم تحت زعامة محمد فريد .

---

(٦٠) مذكرات سعد زغلول كراس رقم ٧ ص ٣٤٢ — ٣٤٤ .

(16) Landau ; op. cit p. 123 .

(٦٢) تقرير جورست عن المالية والادارة والحالة العمومية عام ١٩٠٧ . من جورست الى جرانى . القاهرة — ترجمة المحفوظ ص ٧٦ .

(٦٣) على فهمى كامل : المرجع السابق ص ٣١٥ .